شَـــرحُ

القواعـــد الأربـــع

شـــرح

أبي لقمان هاشم بن حسن بن عبده القرشي

بسم الله الرحمن الرحيم
حقوق الطبع محفوظة

مقدمة الشارح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَـمْدُ لله ربِّ العالمين، وأشهدُ أن لا إله الله وحدهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ وَرسولُهُصلى اللهُ عليه وعلى آله وصحبِهِ أجمعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعدُ:

فقد يسر الله لي تدريس القواعد الأربع للإمام المجدد أبي عبد الله محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله فقام بعض إخواننا الأفاضل جراهم الله خيرًا وأثابهم الجنة بتفريغ الدروس الصوتية، فقمت بمراجعتها، وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح، وحذفتُ ما يحتاج إلى حذف فإنه من المعلوم أنه يحصل في الدرس بعض المناقشة، فخرج هذا الشرح الذي بين يديك بهذه الحلة، وهو جهد المقل.

فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم باسمه الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب، أن يجعل فيه البركة والقبول، وأن ينفعني به في يوم لا ينفع في مالٌ ولا بنون، والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمين.

كـــتبه/

أبو لقمان هاشم بن حسن بن عبده القرشي

غفر الله له ولوالديه والمسلمين.

يوم الأحد ٢٤ رجب ١٤٤٥ من الهجرة النبوية

ترجمة المؤلف

اسمه ونسبه:

هو العلامة الإمام المجدد الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاببن سليمان بن عليبن محمد الوهيبي من بني تميم.

مولده ونشأته:

ولد في بلاد العيينة من قرى اليمامة في بلاد نجد سنة خمسة عشر ومائة وألف من الهجرة النبوية، ونشأ بين أسرة صالحة، فهو من أسرة مباركة، وحفظ القرآن قبل بلوغ العاشرة، وأقبل على العلم وعلى الفقه وعلى العقيدة وعلى التوحيد، وأخذ عن كثير من العلماء في بلاده، ورحل إلى بلاد الجزيرة ونجد والحجاز والبصرةوالمدينة ومكة والأحساء، وغيرها.

شيوخه:

له شيوخ كثر من أبرزهم: والده الشيخ عبد الوهاب رحمه الله فقد استفاد منه خيرًا، أبوه كان قاضي عيينة في تلك البلاد، وجده من أهل الفقه والفتوى، وهو مفتي نجد.

وأيضًا تعلم على يد العلامة عبد الله بن إبراهيم الشمري، وعلى يد ولده إبراهيم، وهو صاحب العذب الفائض، والشيخ إسماعيل العجلوني والشيخ عبد الله بن إبراهيم النجدي وغيرهم.

تلاميذه:

له أيضًا تلاميذ كثر، وخرج علماء من طلبته ومن أبنائه، علي وإبراهيم وعبدالله وحفيده عبد الرحمن بن حسن صاحب فتح المجيد، وحمد بن ناصر بن معمر وغيرهم.

ولا زال أحفاده إلى أيامنا هذهفي بلاد الحرمين، فإذا وجدتم من يسمى بفلان من آل الشيخ فهو من أسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله.

فمفتي المملكة سابقًا الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ هو من أسرة الشيخ رحمه الله، وكذلك الشيخ عبد العزيز آل الشيخ مفتي المملكة في هذا العصر.

والشيخ محمد بن عبد الوهاب علم من أعلام المسلمين، نفع الله به في بلاد نجد والحجاز، وانتشر خيره إلى بلاد اليمن، وإلى بلاد إفريقيا، وإلى غيرها من هذه الأماكن.

وكان الناس يعيشون فترة من الزمن، وهم بعيدون عن العقيدة الصحيحة، فانتشرت عبادة القبور والشرك والبدع والخرافات، فهيأ الله لأ بهذا الإمام.

مؤلفاته:

له مؤلفات كثيرة، منها: **"كتاب التوحيد"**، و**"كشف الشبهات"**، و**"القواعد الأربع"**، و**"ثلاثة الأصول"**، و**"نواقض الإسلام"**، و**"مسائل الجاهلية"**، و**" كتاب في الكبائر"**، و**"مختصر زاد المعاد"**، و**"فضائل الإسلام"**، و**"آداب المشي إلى الصلاة"**، و**"مفيد المستفيد في حكم تارك التوحيد"**، و**"كتاب في السيرة النبوية"**.

وفاته:

مات رحمه الله سنة ست ومائتين وألف من الهجرة النبوية، عن إحدى وتسعين سنة.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

عادةُ أهل العلم أنهم يستفتحون كتبهم بالبسملة لأمور:

أولاً: اقتداءً بالقرآن الكريم، وهي آيةٌ مستقلةٌ تفصل بين السور، وجزءُ آيةٍ من سورة النمل.

ثانيًا:تأسيًا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛حيث كان يفتتح رسائله الى الملوك بالبسملة، فقد جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:«**أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب إلى هرقل: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى؛ أما بعد: فإني أدعوك بدِعايةِ الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنَّ عليك إثم الأريسيين**»(١)، متفق عليه.

ثالثًا: أن هذا استقر عليه عملُ أهل العلم؛فإنهم يفتتحون كتبهم بالبسملة.

قال الحافظ رحمه الله تعالى في" الفتح" (١/ ٩): وقد استقر عمل الأئمة المصنفين: على افتتاح كتب أهل العلم بالبسملة، وكذا معظم كتب الرسائل.اهـ

وأما حديث:«**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحيم فهو أبتر**»، وجاء بلفظ آخر:«**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع**».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧) ومسلم برقم (١٧٧٣).

فهو حديثٌ ضعيفٌ بكل طرقه[١].

والثابت: ما جاء عن أبي هريرة تأن النبي ﷺ قال:«كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء»[٢]، رواه أبو داود وسنده حسن.

ومعنى (الجذماء)،أي: المقطوعة التي لا فائدة فيها لصاحبها، وبعض أهل العلم قال: الجذماء التي أصيبت بمرض الجذام.

وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله من الجذام، قال: «**اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون والجذام وسيئ الأسقام**»[٣].

ومعنى البسملة:

قوله: (بسم الله) الجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف مؤخر، ولم كان الفعلُ مؤخرًا؟

أولا: تبركًا بالبداءة بالبسملة.

---

(١) انظر:«الإرواء» برقم (١ـ٢) والضعيفة برقم (٩٠٢).

(٢)**حسن**. أخرجه أبو داود برقم (٤٨٤١) والترمذي برقم (١١٠٦) وأحمد برقم (٨٥١٨)، وسنده حسن.

(٣) **صحيح**. أخرجه أبو داود برقم (١٥٥٤) عن أنس بن مالك ت، وسنده صحيح.

ثانيا: من أجل إفادة الحصر؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، ومعنى الحصر هو إثبات الحكم المذكور ونفيه عن ما عداه، ويقدر الفعل بما يناسب المقام.

وقوله: (الله)، هو الاسم الأعظم، وهو مشتق من الإله، ومعناه: المألوه محبةً وتعظيمًا.

وقوله: (الرحمن)، هو اسم لله ﷻ، وهو من الأسماء المختصة بالله ﷻ، ولا يطلق على غيره، ومعناه: المتصف بالرحمة الواسعة.

وقوله: (الرحيم)، معناه: الموصل رحمته إلى من شاء من عباده، وهناك أسماء مختصة بالله لا يجوز للانسان أن يتسمى بها، وهناك أسماء مشتركة، وإن سُمي بها العبد فليس المعنى أن فيه معنى هذا الاسم مثلًا: من أسماء الله الحكيم، ومن أسماء الله العزيز، ولا بأس للإنسان أن يتسمى بحكيم أو بعزيز أو بحميد، وإن كان الأحسن أن الإنسان لا يتسمى بهذه الأسماء، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ، واسم ابنه عزيز فأمره النبي ﷺ أن يُغير اسمه إلى عبد الرحمن، والحديث في مسند الإمام أحمد[(١)].

واكتفى المصنف رحمه الله تعالى بالبسملة من باب الاختصار، والله أعلم.

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد برقم (١٧٦٠٦)، وهو حديث صحيح.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة

قوله: (أسأل الله) السؤال بمعنى الطلب، وهو طلب الأدنى من الأعلى، والمعنى أطلب من الله، و(الله) لفظ الجلالة، وهو أعظم الأسماء، وهو الاسم الأعظم، وهو الجامع لمعاني الأسماء والصفات كلها.

وجميع الأسماء تأتي تابعة إليه، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] فيُقال: الله، الرحمن، الرحيم، فجميع الأسماء تابعةٌ للفظ الجلالة.

وأما قوله تعالى: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهِ﴾[إبراهيم:١ـ ٢] بالخفض فهو بدل، وليس نعتًا؛ لأنه لو أعرب نعتًا فقد جعلناه تابعا لما قبله، فقولنا: إلى صراط العزيز الحميد معناه إلى صراط العزيز إلى صراط الحميد إلى صراط الله هذا معنى البدل، فصار لفظ الجلالة ليس تابعًا لما قبله. لكن لو جعلناه نعتًا، فإنه سيتبع ما قبله، فالصفة تتبع الموصوف، لكن لو جعلناه بدلًا فهي جملةٌ يقدر لها عامل آخر، فيُقال: (الله) تقديره: إلى صراط الله.

وقوله: (الكريم)، هو اسم ثابت لله تعالى، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾[الانفطار:٦]، وقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[المؤمنون:١١٦].

قال القرطبي رحمه الله تعالى: وروي عن ابن كثير بالرفع نعتًا لله.اهـ

قلتُ:وأما قراءةُ الجمهور: ﴿**لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾ [المؤمنون:١١٦]، بالخفض فمعناه: أن الكريم وصف للعرش، وعلى قراءة الرفع، فيكون الكريم من أسماء اللع تعالى.

ومعنى الكريم: هو الجامع لأنواع الخير، والشر، والشرف، والفضائل، ولكل ما يحمد عليه، قال الله عز وجل: ﴿ **وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾[النمل:٤٠].

وفي حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا»[(١)]، رواه الثلاثة.

قوله: (أن يتولاك) أي: أن يكون وليًا لك، فالله ﷻ هو ولي المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿ **اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[البقرة:٢٥٧]، وقال: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ** ﴾[محمد:١١].

والولي: هو المؤمن التقي، وهذا هو أحسن تعريف للولي.

---

(١) **صحيح**. أخرجه أبو داود برقم (١٤٨٨) والترمذي برقم (٣٥٥٦) وابن ماجه برقم (٣٨٦٥)، وهو حديث صحيح.

قال الله ﷻ: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[يونس:٦٢ـ٦٣].

فاستنبط أهل العلم من هاتين الآيتين تعريف الولي.

فقالوا: هو المؤمن التقي، وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾[المائدة:٥٥]، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[المائدة:٥٦].

وقال سبحانه: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[الجاثية:١٩]، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾[الحج:٧٨].

فالله ﷻ يحفظ أولياءه، وينصرهم، ويرعاهم، ويوفقهم، ومن حارب أولياءه فإن الله ﷻ يحاربه.

قال النبي ﷺ : قال الله تعالى:«**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب**»(١)، الحديث، رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان أنبياء عليهم الصلاة والسلام يسألون الله أن يرزقهم ذرية طيبة من أولياء الله لأ، فهذا زكريا ؛ قال الله عنه: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾[مريم:٥].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢).

وإذا تولاك الله فإن لهذه الولاية ثمرات عظيمة وبشارات جليلة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[يونس:٦٤]، والبشرى في الدنيا تكون بأمور كثيرة:

أولا: أن الله معه في نصره وتأييده، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾[النحل:١٢٨]، وقال: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[غافر:٥١].

ثانيًا: تسديد جوارحه وتوفيقه للحديث المتقدم، والتوفيق هو ألا يكلك الله إلى نفسك، والخذلان أن يكلك الله إلى نفسك كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى(١).

ثالثًا: ما يراه المؤمن في النوم، أو ما يرى له من الخير، قال ؛ في تفسير البشرى:«**الرؤيا الصالحة يراها المؤمن، أو ترى له**»(٢).

رابعًا:استجابة الدعاء فمن كان وليًا لله، فإن الله تعالى يستجيب دعاءه، دليل ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وفيه:«**ولئن سألني لأعطينه**»(٣)، رواه البخاري.

---

(١) في (الوابل) ص(٧) و(الفوائد) ص(٩٧) و(المدارج) (١/ ٤١٥).

(٢)صحيح لغيره. أخرجه أحمد برقم (٢٢٧٦٧)، وسنده حسن، وله شواهد يصح بها.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢).

خامسًا: أن الله تعالى يجيره مما استعاذ منه، قال في الحديث:«ولئن استعاذني لأعيذنه»[(١)].

سادسًا: ما يجري الله تعالى على يد وليه من الآيات، والكرامات العظيمة، كما وقع لمريم **عليها السلام**: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[آل عمران:٣٧]،وكأصحاب الكهف، والغلام مع الساحر، والصبي مع أمه في قصة الأخدود: «**لما تقاعست أمه فقال لها: يا أمه اصبري فإنك على الحق**»[(٢)].

سابعًا: تبشير الملائكة له عند النزع الأخير، وخروج الروح، فالولي يبشر عند سكرات الموت، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾[فصلت:٣٠ـ ٣٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٣٠٠٥) عن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما البِشارة في الآخرة فتكون بالأمن من الفزع يوم القيامة والبشارة بالجنة، قال الله تعالى:﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[البقرة:٢٥] الآية.

وقوله:(أن يتولاك في الدنيا والآخرة)، لِمَ سُميت الدنيا بذلك؟

الجواب: لدنوها من الآخرة؛ لأنها دنت، وتأخرت الآخرة، والدنو هو القرب. فالدنيا قصيرة، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾[الأنفال:٤٢]، وقيل: سميت الدنيا لدنوها، ودنائتها.

وأما الآخرة فهي دار القرار قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾[غافر:٣٩]، وإن الآخرة هي دار القرار سُميت الآخرة؛ لأنه لا شيء بعدها، وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وإنما سُميت الآخرة؛ لأنها بعد الدنيا.اهـ

قال المصنف رحمه الله تعالى:

وأن يجعلك مباركا أينما كنت

وهذا فيه اقتباسٌ من قوله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]، ومعنى هذا: أسأل الله أن يُصيرك مباركًا أينما كنت، وأينما توجهت فالبركة تصاحب الولي أينما حلَّ ونزل، وأينما كان وسكن، والبركة هي ثبوت الخير الإلهي في الشيء.

وقال السعدي رحمه الله في تفسيره: هي كثرة الخير، ودوامه.اهـ

والبركة من الله، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**والبركة من الله**» [١]، رواه البخاري عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهي تطلب من ربنا تبارك وتعالى وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «وبارك لي فيما أعطيت» [٢] رواه الأربعة عن الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

وأن يجعلك ممن إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر وإذا أذنب استغفر

ولابن القيم رحمه الله تعالى كلامٌنحو هذا، قال في الوابل الصيب[٣]: وأن يجعلكم ممن إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عبد عنها أبدا.اهـ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٥٧٩).

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود برقم (١٤٢٥) والترمذي برقم (٤٦٤) والنسائي برقم (١٧٤٥) وابن ماجه برقم (١١٧٨) وأحمد برقم (١٧١٨)، وهو حديث صحيح.

(٣) ص (٥).

لا بد للإنسان أن يدور بين هذه الثلاث، إما أن يعطى فيقابلها بشكر أو بكفر، وسيبتلى فإما أن يقابل الابتلاء بالصبر أو بالجزع والتسخط، وأما الذنب فإنه من طبيعة البشر، فإما أن يقابل الذنب بالاستغفار، وإما أن يتمادى في ذنوبه.

قال رحمه الله تعالى: فإن العبد دائم التقلب بين هذه الأطباق الثلاث:

الأول: نِعَمٌ من الله تعالى تترادف عليه، فقيدها الشكر.

وهو مبني على ثلاثة أركان: الاعتراف بها باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا، وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها،فإذا فعل ذلك شكرها مع تقصيره في شكرها.

الثاني: مِحَنٌ من الله تعالى يبتليه بها، ففرضه فيها الصبر والتسلي.

والصبر: حبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس عن اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية، كاللطم وشق الثياب، ونتف الشعر، ونحوه.

فمدارُ الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة إلى منحة، فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية وصار المكروه محبوبًا.اهـ

وهل الصبر واجبٌ أو مستحبٌ؟

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى(١): والصبر واجب باتفاق العلماء، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله، والرضا قد قيل: إنه واجب، وقيل: هو مستحب، وهو الصحيح، وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله بها، جعلها سببًا لتكفير خطاياه، ورفع درجته، وإنابته إلى الله، وتضرعه إليه، وإخلاصه له في التوكل عليه ورجائه دون المخلوقين.اهـ

والخلاصة أنَّ للإنسان مع البلاء عدةَ أمور:

أولًا: الصبر، وحكمه الوجوب.

ثانيًا: الرضا،وهو مستحب.

ثالثًا: الشكر، وهو مستحب.

وهذا لا يتأتى إلا من رجل وقر الإيمان في قلبه، وصار لا يفكر إلا في الآخرة، يبتلى فيشكر الله تعالى، ويفرح بالبلوى،وهذا شيءٌ صعبٌ جدًا أن يصل الإنسان إليه، إلا إذا وصل مرتبة من العبادة والقرب من الله عز وجل.

---

(١) في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص (١٣٦).

كانوا يدخلون على بعض السلف[١]، وقد قطعت يداه ورجلاه، من أجل أن يصبروه، فيدخلون وهو صابرٌ، وشاكر لله تعالى، قال النبي ﷺ : «**وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء**» [٢].

وقوله:(وأن يجعلك ممن إذا أُعطي شكر).

الله عز وجل هو المعطي، قال النبي ﷺ : «إنما أنا قاسم والله يعطي» [٣]، وفي الصحيحين[٤] عن المغيرة بن شعبة ت، أن النبي ﷺ كان يقول بعد انتهائه من الصلاة:«اللهم لا مانع لما اعطيت ولا معطي لما منعت».

فالله لأ هو الذي يعطي، وما كان عطاء ربك محظورا، هذا العطاء يقابل بالشكر.

والشكر لغة: عرفان الإحسان ونشره.

واصطلاحا: ظهورُأثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبةً، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعةً[٥].

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٧٤) في ترجمة أبي قلابة الجرمي رحمه الله.

(٢)صحيح. أخرجه ابن ماجه برقم (٤٠٢٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو حديث صحيح

(٣) أخرجه البخاري برقم (٧١) ومسلم برقم (١٠٣٧) عن معاوية رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٨٤٤) ومسلم برقم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٥) انظر مدارج السالكين (٢/ ٢٣٤).

ومن أسماء الله تعالى الشكور، ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾[التغابن:١٧]، ومن أسمائه الشاكر قال الله ﷻ: ﴿ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[النساء:١٤٧]، وهو الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيما في الآخرة غير محدود، وقد قرن الله سبحانه وتعالى الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[النساء:١٤٧]،وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾[الأنعام:٥٣]، وقسم الله الناس إلى شكور وكفور ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان:٣]، وعلق سبحانه المزيد بالشكر والمزيد منه لا نهاية له ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم:٧]، وأوقف سبحانه الجزاء على المشيئة كثيرًا، وأطلق ذلك في الشكر، فقال: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٤]، ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٥]، بل قد جعل الشكر هو الغاية من خلقه فقال: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وأخبر أنه إنما يعبده من شكره، ومن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته، فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[البقرة:١٧٢]، وقد أثنى ربنا تبارك وتعالى على أول

رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وأثنى على خليله ابراهيم بشكره نعمه، فقال ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢١]، وأمر عبده موسى بالشكر فقال: ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[الأعراف:١٤٤]، بل جعل الله أول وصية وصى بها الانسان بعدما عقل عنه بالشكر له وللوالدين﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾[لقمان:١٤]، كما أخبر سبحانه أن رضاه في شكره﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[الزمر:٧][(١)]، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكر الله ﷻ بعد كل صلاة ويقول:«**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[(٢)]،رواه أبو داود عن معاذ بن جبل ت، وقال ؛: «**وكن قنعا تكن أشكر الناس**» [(٣)]، رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال ؛ لشداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يا شداد اذا رأيت الناس يكنزون الذهب فضة فاكنز أنت هذه الكلمات**»، وذكر: «**وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك**» [(٤)]، رواه النسائي وهو حديث

---

(١) انظر مدارج السالكين (٢/ ٢٣٢ـ٢٣٣).

(٢)صحيح. أخرجه أبو داود برقم (١٥٢٢) والنسائي برقم (١٣٠٣) وأحمد برقم (٢٢١١٩)، وسنده صحيح

(٣) حسن. أخرجه ابن ماجه برقم (٤٢١٧)، وسنده حسن.

(٤)حسن بشواهده. أخرجه النسائي برقم (١٣٠٤)، وغيره.انظر الصحيحة برقم (٣٢٢٨).

صحيح، وكان من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«**ربي اجعلني لك شاكرا**» (١)، رواه أبو داود عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو الله تعالى بهذه الدعوة، فنحن من باب أولى أن نسأل الله وجل أن يجعلنا من عباده الشاكرين.

وقوله: (واذا ابتلي صبر)، الابتلاء هو الاختبار قال الله تعالى: ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾[الملك:٢]، وقال: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾[الأنبياء:٣٥]، وهو سنة الله في خلقه، لابد من الابتلاء، فقد ابتلى الله الأنبياء والصالحين، وقد يقابل بالصبر وقد يقابل بالجزع والتسخط قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «فمن رضي فله الرضا، ومن سَخِطَ فله السَّخَطُ» (٢)، رواه الترمذي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والبلاء يكون في النفس، وفي المال، وفي الولد، وفي العرض، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**» (٣)، رواه الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١)صحيح. أخرجه أبو داود برقم (١٥١٠) وابن حبان برقم (٩٤٧)، وسنده صحيح.

(٢)حسن. أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦) وابن ماجه برقم (٤٠٣١)، وهو حديث حسن.

(٣)حسن. أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٩) وأحمد برقم (٧٨٥٩)، وسنده حسن.

وقال ابن القيم رحمه الله(١): فلله سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين، ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته، وهل وصل من وصل الى المقامات المحمودة، والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء.اهـ

ومعنى هذا أن الله إذا أراد بالعبد خيرًا ابتلاه حتى يصل الى هذه الدرجة التي كتبت له، وقد سئل الإمام الشافعي رحمه الله: أيبتلى العبد أو يمكن؟ قال: يبتلى، ثم يمكن.

وقد يكون للإنسان الدرجة في الجنة لا يدركها بكبير عمل، فلا يزال الله يبتليه حتى يصل إلى هذه الدرجة قال النبي ﷺ : «**إن الرجل لتكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يُبلغه إياه**» (٢)، رواه ابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث حسن.

فالابتلاء يقابل بالصبر، ومن الناس من يقابل الابتلاء بالجزع والتسخط.

والصبر في اللغة: بمعنى الحبس.

وشرعًا:حبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية.

---

(١)في مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠١).

(٢)**حسن**. أخرجه ابن حبان برقم (٢٩٠٨)، وسنده حسن.

قال شيخ الاسلام رحمه الله(١):وقد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعًا.اهـ وهو صفة الأنبياء والصالحين، فقال سبحانه وتعالى عن أيوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[ص:٤٤]، وقال عن يعقوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾[يوسف:١٨]، وقال عن إسماعيل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[الصافات:١٠٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنبياء:٨٥]فمدحهم بالصبر، وقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب:٣٥]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبر»(٢)، متفق عليه عن أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وفي حديث ابن عباس بأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**واعلم أن النصر مع الصبر**» (٣)، رواه أحمد، وهو حديث صحيح، وفي صحيح مسلم عن صهيب ت

---

(١) انظر: أمراض القلوب وشفاؤها ص (٥٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٤٦٩) ومسلم برقم (١٠٥٣).

(٣)صحيح. أخرجه أحمد برقم (٢٨٠٣)، وهو حديث صحيح.

أن النبي ﷺ قال: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»(١).

فهو بين أمرين: إما في نعمة فيقابلها بالشكر، وإما في بلية فيقابلها بالصبر.

والصبر على ثلاثة أقسام:

١ـ صبر على طاعة الله حتى يؤديها الله

٢ـ وصبر عن معصية الله حتى يتركها.

٣ـ وصبر على اقدار الله المؤلمة.

وخير ما يرزقه الانسان في هذه الحياة أن يكون صابرًا شاكرًا لله ﷻ، فإن العيش يكون طيبًا بالصبر، قال عمر رضي الله عنه: «**وجدنا خير عيشنا في الصبر**»(٢).

وقوله:(واذا اذنب استغفر)، لابد للإنسان أن يقع في الذنب، فمن طبيعة البشرية الوقوع في الذنوب، فإما أن يقابل الذنب بالاستغفار، وأما أن يتمادى في ذلك، والذي يجب على المسلم أن يُقابل الذنب بالتوبة والاستغفار.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٩٩).

(٢)صحيح. أخرجه البخاري معلقًا تحت باب الصبر عن محارم الله ووصله ابن المبارك في الزهد برقم (٦٣٠)، وسنده صحيح إن كان مجاهد سمع من عمر، وذكر الحافظ في الفتح (١١/ ٣٠٣) أنه جاء عند الحاكم ذكر الواسطة بينهما وهو سعيد بن المسيب، فصح الأثر والحمد لله.

والذنب: هو الإثم، ويجمع على ذنوب، ومعنى أذنبأي: وقع في الإثم.

وقوله: (استغفر)أي: طلب المغفرة من الله تعالى، والمغفرة تستلزم أمرين:أن يسترك الله، وأن يتجاوز عنك، وبعض الناس إذا استغفر الله يستحضر أمرًا واحدًا، وهو أن يطلب المغفرة من الله، وينسى أن يستحضر الأمر الآخر، وهوأنه يسأل الله عز وجل أن يستره.

والمغفرة: بمعنى ستر الذنب، وطلب العفو، ومن أسماء الله تعالى الغفور، والغفار﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[النور:٢٢]، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾[نوح:١٠]، ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه:٨٢].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى عن الذنوب(١): ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان....إلى أن قال: وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا بسبب الذنوب والمعاصي.اهـ وذكر كلامًا جميلًا طيبًا وهو كلامٌ طويلٌ فليُراجع.

فالسعيد من تاب، واستغفر من ذنوبه قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران:١٣٥].

---

(١) انظر الداء والدواء ص (٤٢) وانظر ما بعدها.

وفي الحديث القدسي:«**يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عَنَانَ السماءثم استغفرتني غفرت لك ما كان منك ولاأبالي**» (١) رواه الترمذي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**طُوبى لمن وَجَدَ في صحيفته استغفارًا كثيرًا**» (٢)، رواه ابن ماجه عن عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وشرع الاستغفار في كل وقت وحين، وفي بعض العبادات شرع الاستغفار بعدها، فمنها مثلًا: الصلاة فإذا فرغ الإنسان من صلاته فإنه يقول: أستغفرُ الله ثلاثًا، وبعد الحج ﴿ **ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾[البقرة:١٩٩].

قال المصنف رحمه الله تعالى:

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]

قوله:(اعلم) هي كلمةُ تنبيه يؤتى بها للاهتمام بما بعدها.

وقوله: (أرشدك الله) أي: هداك ووفقك وأصلحك وأرشدك مأخوذ من الرُّشْد أو الرَّشَد، وهو ضد الغي كما قال سبحانه: ﴿ **قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ** ﴾

---

(١) حسن. أخرجه الترمذي برقم (٣٥٤٠) وهو حديث حسن.

(٢)صحيح. أخرجه ابن ماجه برقم (٣٨١٨)، وهو حديث صحيح.

[البقرة:٢٥٦]، فالرشاد هو الاستقامة على طريق الحق، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾[الحجرات:٧]، فمن استقام على الصراط المستقيم فهو من الراشدين، ولهذا قال الله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾[الحجرات:٧]،وقال عن فرعون: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾[هود:٩٧]؛ لأنه لم يستقم على الصراط المستقيم.

وقوله:(لطاعته) الطاعة: هي موافقة أمر الشرع بفعل المأمور، وترك المحظور.

وقوله:(أن الحنيفية ملة إبراهيم)الحنيفية مأخوذة من الحنف، وهو في اللغة: الميل والإقبال إلى شيء والإعراض عن شيء.

وشرعًا: المائل عن الشرك قصدًا وإخلاصًا إلى التوحيد.

وقال ابن القيم رحمه الله (١): والحنيف هو المقبل على الله، المعرض سواه، ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسره بلازم المعنى، فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل على شيء مال عن غيره.اهـ

---

(١) انظر جلاء الأفهام ص (٢٦٩).

وقوله:(ملة ابراهيم)

سؤالٌ: لماذا أُضيفت الملة إلى إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دون غيره؟

الجواب: لأنه جاء في القرآن الكريم مضافًا إليه، قال الله تعالى:﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[البقرة:١٣٥]، وقال تعالى:﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[النحل:١٢٣].

والملة: هي اسمٌ لكل ما شرعه الله تعالى لعباده على ألسنة انبيائه؛ ليتوصلوا به إلى جوار الله.

وإبراهيم ؛ هو ابن آزر كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ [الأنعام:٧٤]، وحصل خلاف بين أهل العلم هل آزر أبوه أو عمه أو هو لقب لأبيه؟ وسياق الآية يدل على أنه اسم أبيه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾[الأنعام:٧٤]، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة...**» (١) الحديث رواه البخاري.

وقد وصفه الله بقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٣٠).

قال ابن القيم رحمه الله[١]: فالأمة هو القدوة المعلم للخير، والقانت المطيع لله الملازم لطاعته، والحنيف المقبل على الله المعرض عما سواه.اهـ

وقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ لا بقوله، ولا بقصده، ولا بعمله.

وإبراهيم ؛ هو خليل الرحمن، وأبو الأنبياء لمن بعده قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧]، وقد ذكر في القرآن الكريم في ثلاث وستين موضعًا.

قوله:(أن تعبد الله وحده)

العبادة في اللغة: الخضوع والذل.

وشرعًا:هي اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله تعالى، ويرضاه من الأقوال، والأفعال الظاهرة والباطنة.

وهذا أحسنُ تعريف للعبادة، وهو تعريف شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله[٢].

والتعبد: هو غاية الحب وغاية الذل، والغاية بمعنى التمام، والعبادة لها ركنان ولها شرطان فالشرطان هما: الإخلاص والمتابعة، والركنانهما: كمال الخضوع والذل مع كمال المحبة.

---

(١) في جلاء الأفهام ص (٢٦٩).

(٢) في كتابه العبودية ص (٤٤).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى(١):

وعبـــادة الـــرحمن غايـــة حبـــه ... مـــع ذل عابـــده همـــا قطبـــان

وعلـــيهما فلـــك العبـــادة دائـــر ... مـــا دار حتـــى قامـــت القطبـــان

قال بعض السلف(٢): من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد.

قوله: (مخلصًا له الدين) هذه المادة الخاء واللام والصاد تدل على السلامة، والصفاء، والنقاء من الشوائب ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل:٦٦].

وأما في الشرع:فهو أن يقصد العبد بعمله رضا الله وثوابه.

وقوله:(الدين) الدين في اللغة: ما يدان به، وينقاد اليه.

وشرعًا: هو ما شرعهُ الله تعالى من الأحكام، والمراد به هنا العمل أي: مخلصًا له العمل.

---

(١) في نونيته المسماه الكافية الشافية.

(٢) يُذكر عن مكحول الدمشقي رحمه الله، والله أعلم.

ويطلق الدين على الإسلامكما في حديث جبريل عليه السلام: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» (١).

قال شيخ الاسلام رحمه الله في العبودية(٢): فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له.ا هـ

قال المصنف رحمه الله تعالى:

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]

هذه الآية بينت الحكمة من خلق الجن والإنس، وهي العبادة، والجن عالم غيبي خلقهم الله من نار قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧]،وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وخَلق الجان من مارج من نار**»(٣)، رواه مسلم.

لِمَ سُموا بذلك؟الجواب:سموا بذلك لاستتارهم عن الأعين، فإن مادة الجيم والنون تدل على الخفاء والاستتارة.

﴿وَالإِنسَ﴾ هم البشر سُموا بذلك؛ لأن بعضهم يأنس ببعض.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) العبودية ص (٤٨).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٩٩٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾أصلها إلا ليعبدونني، حذفت نون الفعل للناصب، والنون الباقية هي نون الوقاية، وحذفت ياء المتكلم وهي لغة.

وفسرت العبادة هنا بالتوحيد ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾إلا ليوحدون، وليس التوحيد عين العبادة، فالعبادة أعم كالصلاة والحج، وهي تتضمن التوحيد، ولكن المعنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾أي: ليفردوني بالعبادة.

وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾المراد بالعبادة هنا العبادة الشرعية لا الكونية.

والعبادة على أقسام: عبادة شرعية، وعبادة كونية.

فالعبادة الشرعية هي الخضوع لأمر الله تعالى الشرعي، وهذه خاصة بمن أطاع الله واتبع ما جاءت به رسله، قال الله تعالى:﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾[الفرقان:٦٣].

والكونية: هي الخضوع لأمر الله تعالى الكوني، فكلهم تحت قهره وقدره، وهي شاملة لجميع الخلق﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣].

وهناك عبادة خاصة الخاصة وهذه للأنبياء والرسل، وعبادة خاصة للمؤمنين وعبادة عامة لجميع الخلق.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة

أي:إذا عرفت جزمًا من الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:٥٦])، أن الله تعالى خلقك، وأوجدك من العدم، فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة صحيحة مقبولة، إلا بشرط:

وهو التوحيد، وهو يتضمن الإخلاص والمتابعة.

والمراد بالتوحيد هنا: هو إفراد الله تعالى بالعبادة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾[النساء:٣٦]، فكذلك الصلاة لا تسمى صلاة شرعية مقبولة إلا مع الطهارة من الحدثين الأصغر والأكبر.

والصلاة في اللغة: بمعنى الدعاء.

وفي الشرع: هي أقوال وأفعال مخصوصة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم تعبدًا لله تعالى.

إذن العبادة لا تقبل إلا مع التوحيد، والصلاة لا تقبل إلا مع الطهارة، وهذا من باب التمثيل لطالب العلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كالحدث إذا دخل في الطهارة

فإذا دخل الشرك في العبادة أفسدها، ولو في جزء من أجزائها، قال الله عز وجل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الزمر:٦٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨]، وقال النبي ﷺ : «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**» (١)، رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال:(**كالحدث**): والحدث: هو وصف قائم بالبدن يمنع من الصلاة، ونحوها.

فالحدث إذا حصل من الإنسان فإنه يفسد عليه طهارته، قال النبي ﷺ :«**لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ**» (٢)، متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٩٥٤) مسلم برقم (٢٢٥).

ﷺ :«**لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول**» (١)، وجاء هذا الحديث في سنن أبي داود (٢) عن والد أبي المليح، وهو أسامة بن عمير رضي الله عنه.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها، وأحبط العمل، وصار صاحبه من الخالدين في النار، عرفت أن أهمَّ ما عليك معرفةُ ذلك

إذا علم الإنسان أن الشرك يُحبط العمل فإنه يجب عليه أن يتعلم ما ينفعه، وأن يتعلم التوحيد حتى يحذر من الشر من الشرك وغيره.

وقوله:(**صار صاحبه من الخالدين في النار**) حصل خلافٌ بين أهل العلم من الذي يخلد في النار، هل صاحب الشرك الأصغر مع الأكبر، أم صاحب الشرك الأكبر؟

والصحيح أن الذي يخلد في نار جهنم هو صاحب الشرك الأكبر، وأما صاحب الشرك الأصغر فهو تحت مشيئة الله تعالى؛ لأن الشرك إذا أُطلق في الكتاب والسنة انصرف إلى الشرك الأكبر، وأما الشرك الأصغر فيأتي مقيدًا قال

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٤).

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود برقم (٥٩) والنسائي برقم (١٣٩) وهو حديث صحيح. وأخرجه ابن ماجه برقم (٢٧٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو حديث حسن، وبرقم (٢٧٤) عن أبي بكرة رضي الله عنه، وهو حديث بشواهده.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إن أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الأصغر**»، **قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء»** [(١)]، رواه أحمد عن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو حديث حسن.

وهناك فروقٌ بين الشرك الأكبر والأصغر وهي:

أولا: أن الشرك الأكبر محبطٌ للعمل إذا مات مات عليه صاحبه، وأما الأصغر فلا يُحبط إلا العمل الذي قارنه على تفصيل في ذلك من حيثُ لو دافع الرياء، أو استرسل فيه، ومن حيث العبادة هل هي متصلة أو منفصلة؟

ثانيًا: أن الشرك الأكبر مخرجٌ من الملة، وأما الأصغر فلا يخرج من الملة.

ثالثًا: أن صاحب الشرك الأكبر من المخلدين في النار، وأما صاحب الشرك الأصغر فهو تحت مشيئة الله تعالى.

رابعًا:أن الشرك الأكبر يُبيح الدم والمالوأما الشرك الأصغر فلا يُبيح ذلك.

وقوله: (من الخالدين في النار) الخلود نوعان: خلودٌ أبدي، وخلود أمدي فالأبدي ما لا نهاية له، والأمدي ما كان إلى مدة، والله تعالى يذكر في كثير من الآيات،ويقول:﴿**خَالِدِينَ فِيهَا**﴾، وأما الكفار فقد ذكر الله تعالى الخلود، وبيّن أنه أبدي في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم:

---

(١)**حسن**. أخرجه أحمد برقم (**٢٣٦٣٠**)، وهو حديث حسن.

الأول: قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء:١٦٨ـ ١٦٩].

الثاني: قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾[الأحزاب:٦٤ـ ٦٥].

والثالث: قوله تعالى: ﴿ إِلَّا بَلاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾[الجن:٢٣].

قال المصنف رحمه الله تعالى:

عرفت أن أهمَّ ما عليك معرفةُ ذلك

أي: أنه أوجب وآكد ما يجب عليك معرفته؛ لأنه لا نجاة للعبد إلا بتوحيد رب العالمين.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

لعل الله يخلصك من هذه الشبكة وهي الشرك بالله الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨]

لعل الله هذا من باب الترجي، لعل الله أن ينجيك من هذه الشبكة، والشبكة مأخوذة من شبكة الصياد، وتجمع على شِبَاك وشُبُك وشَبَكَات، ومنه: تشبيك

الأصابع لدخول بعضها في بعض، ويقال: اشتبكت الأمور، وتشابكت بمعنى اختلطت والتبست.

وهذا يدل على أنه يجب علينا أن نسأل عن الشر حتى لا نقع فيه، قال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كان الناس يسألون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يُدركني**» (١)، متفق عليه.

وقد قيل: عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ومن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ﴾ يشمل نفي المغفرة دقيقها وجليلها قليلها وكثيرها.

﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر، وهو مفعول به، والمعنى إنَّ الله لا يغفر إشراكًا به، وإشراك نكرة، والنكرة في سياق النفي تدل على العموم.

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: ما هو أقل من الشرك والكفر.

﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يدل على أن ما دون الكفر والشرك فإنه تحت المشيئة.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله في كتابه

أي: نجاتك بعد رحمة الله تعالى بمعرفة التوحيد والعمل به.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦٠٦) ومسلم برقم (١٨٤٧).

وقوله:(بمعرفة أربع قواعد) القواعد جمع قاعدة، وهي قضيةٌ كليةٌ منطبقةٌ على جميع جزيئاتها تحتها فروع ومسائل.

وقوله:(ذكرها الله في كتابه)هذا فيه دليل على أن التوحيد مأخوذ من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، وأهل السنة والجماعة بحمد الله عقيدتهم مأخوذة من الكتاب والسنة، بخلاف أهل البدع فإنهم يأخذون عقيدتهم من زعماءهم.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

القاعدة الأولى: أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بأن الله تعالى هو الخالق المدبر، وأن ذلك لم يدخلهم في الإسلام، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١]

هذه القاعدة هي القاعدة الأولى، وهي قاعدةٌ مجمعٌ عليها؛ لأنها مأخوذةٌ من أدلة الكتاب والسنة، ومضمون هذه القاعدة، أنه لا ينفع الإقرار بتوحيد الربوبية دون توحيد الالوهية.

وقوله:(أن تعلم أن الكفار) عبر بالكفار عن المشركين؛ لأن الشرك والكفر يرد كل منهما مورد الآخر في غالب كلام أهل العلم، وبعض العلماء يفرق بين الكفر والشرك فيجعل الكفر أعم والشرك أخص، فكل مشرك كافر ولا عكس.

فمن أشرك بالله تعالى شركًا أكبر فقد كفر لكن قد يكون الإنسان كافرًا، وليس بمشرك.

وقوله:(أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ).

وهم مشركو العرب،ومن كان على شاكلتهم على اختلاف أنواعهم، قاتلهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بأمر الله تعالى فقد قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ :«**أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويُقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»(١)، متفق عليه عن ابن عمر ب.

قوله:(مقرون) اسم فاعل من أقر يُقر إقرارًا، والإقرار: إثبات الشيء، يُقال:أقر بذلك أي:أثبته على نفسه، ومنه قوله تعالى:﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[الحج:٥]، وقد يكون ذلك الإقرار إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بهما، قد يقر الانسان بلسانه ولا يقر بقلبه، وقد يقر بقلبه ولا يقر بلسانه، وقد يقر بقلبه ولسانه.

والإقرار بالتوحيد وما يجري مجراه لا يغني باللسان، بل لابد من إقرار بالقلب واللسان، ويضاد الإقرار الإنكار، وأما الجحود فإنما يقال: في من ينكر باللسان

---

(١)أخرجه البخاري برقم (٢٥) ومسلم برقم (٢٢)، وجاء في البخاري برقم (١٣٩٩) ومسلم برقم (٢١) عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ،وجاء في البخاري برقم (٢٩٤٦) ومسلم برقم (٢١) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ، وجاء في البخاري برقم (٣٩٢) عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ،وفي صحيح مسلم برقم (٢٣) عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ .

دون القلب، مثلًا: هناك أناسٌ لا يقرون بوجود الله تعالى، ومنهم الدهرية ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، فهؤلاء لم يقروا بلسانهم ولا بقلوبهم، وأما فرعون فقد أقر بقلبه ولم يقر بلسانه قال الله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[الإسراء:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَاأَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:١٤]، وأما المؤمن الموحد فهو من أقر بقلبه ولسانه وعمِل بمقتضى ذلك.

قوله:(بأن الله تعالى هو الخالق المدبر)أي: هم مقرون بتوحيد الربوبية في الجملة لا على وجه التمام، وإنما أقروا في بعض الأمور، لا على وجه التمام والكمال.

وقولنا:أقروا بتوحيد الربوبية في الجملة يعني:أنهم لم يُقروا بتوحيد الربوبية في كل شيء،وإنما في بعض الامور،فقد كانوا يُشركون بالله تعالى وعندهم تمائم وعندهم تطير وتشاؤم فلم يحققوا توحيد الربوبيةكما أمر الله تعالى ، فهم مقرون بتوحيد الربوبية في الجملة، ولا نقول: إنهم مقرون بتوحيد الربوبية مطلقًا، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ﴾[الرعد:١٦]، وقال: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لله قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٦ـ ٨٩]، وقال: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [سبأ:٢٤]، وقال:

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ للهِ﴾[الأنعام:١٢]، وقال:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[العنكبوت:٦١]، وقال: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾[العنكبوت:٦٣]، وقال: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[لقمان:٢٥]، وقال: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾[الزمر:٣٨]، وقال: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٩]، وقال: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف:٨٧].

فهم مقرون بأن الله تعالى هو الخالق،ولكنهم أشركوا في توحيد الألوهية،ولم ينكر أحدٌ من الأمم أن الله تعالى هو الخالق الا من شذ **وهم صنفان:**

الصنف الأول: من أنكر ظاهرًا وباطنًا أن الله تعالى هو الخالق، ومنهم: الدهرية والشيوعيون والطبيعيون، وغيرهم من الملاحدة.

الصنف الثاني: من أقر به باطنًا، وأنكره ظاهرًاكفرعون وغيره، فقد قال لقومه كما قال الله عنه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨]، ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾[النازعات:٢٤]، وهو مقرٌ في الباطن بوجود الله تعالى، ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[الإسراء:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَاأَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[النمل:١٤].

والخلق في اللغة: ابتداع الشيء على مثال لم يسبق، وكل شيء خلقه الله تعالى فهو مبتدئه غير مثال سُبق إليه.

فالخالق هو من أوجد الأشياء على غير مثال سابق، ولا يقال للصانع:إنه خالقٌ؛ لأنه يحول من شيء إلى شيء آخر، ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إن الله خلق كل صانعٍ وصنعتِهِ**»(١).

وقوله:(المدبر) لا يوجد دليل يدلُ على أنه من أسماء الله تعالى ، وإنما يكون من باب الإخبار، وباب الإخبار أوسع من باب الصفات، وباب الصفات أوسع الأسماء، فأسماء الله تعالى توقيفية،فما ثبت الدليل قلنا: هذا من أسماء الله تعالى، وهناك أسماء يكون فيها نقص فنقول: هذه ليست من أسماء الله تعالى لا تثبت، وهناك أسماء ليس فيها نقص، لكنه لم يرد دليل في القرآن أو في السنة على أنه من أسماء الله تعالى فنقول: لم يثبت دليل على أنه من أسماء الله؛ لأنه قد يكون من أسماء الله تعالى ونحن لا نعلم، ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك،أو علمته أحدًا من خلقك،أو استأثرت**

---

(١)صحيح. أخرجه ابن أبي عاصم برقم (٣٥٧) والحاكم برقم (٨٥) عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وهو حديث صحيح.

به في علم الغيب عندك....»[(١)] الحديث،وهذا يدل على أنه هناك أسماء استأثر الله تعالى بها في علم الغيبلا يعلمها أحدٌ.

فمن الخطأ أن يقول بعضهم في اسم لم يأت فيه دليل، وليس فيه نقصٌ: هذا ليس من أسماء الله فقد يكون من أسماء الله تعالى التي استأثر بعلمها، فالمدبر ما جاء دليل فنقول: لم يأت دليل على أنه من أسماء الله تعالى، ولكنه يخبر به عن الله تعالى، يُقال: الله تعالى مدبر من باب الإخبار.

وقوله:(وأن ذلك)أي: الإقرار ببعض أفراد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام، بل هم باقون على كفرهم، ولذا أُمر النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بقتالهم.

فدل على أن توحيد الربوبية فقط لا تكون به العصمة، وحقن الدماء، وإنما تكون بالإقرار بتوحيد الألوهية، قال الله تعالى:**﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾[يوسف:١٠٦]**، يعني:أنهم يقرون بوجود الله تعالى، وبأنه خالق مدبر، وهم مشركون في توحيد الألوهية، ولا ينفعهم ذلك.

قال القرطبي رحمه الله[(٢)]: نزلت في قوم أقروا بالله خالقِهم، وخالقِ الأشياءِ كلِّها، وهم يعبدون الأوثان، وهذا قولُ أكثرِ المفسرين.اهـ

---

(١)**حسن بشواهده.** أخرجه أحمد برقم (٣٧١٢) عن ابن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وهو حديث بشواهده وقد حسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (١٩٩).

(٢)في تفسيره (٩/ ٢٧٢) عند الآية المذكورة.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

والدليل: قوله تعالى:﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾الآية

قوله: ﴿ قُلْ﴾ أي: يا أيها الرسول ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾بما يُنزله من المطر، وسُمي المطر سماء لخروجه منها، والمراد بالسماء هنا العلو، وسماء كل شيء أعلاه، يقال: سماء البيت بمعنى سقف البيت.

﴿وَالأَرْضِ﴾ الأرض يعبر بها عن أسفل الشيء، وجمعها أرَضُون، ولم تأتِ مجموعة في القرآن الكريم، ويرزقنا الله من الأرض بما ينبت فيها من أنواع النبات.

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ﴾السمع قوةٌ في الأذن به يُدرك الأصوات وفعله، ويعبر تارة بالسمع عن الأذن، قال الله تعالى:﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾[البقرة:٧] والمراد على أذانهم، وتارة عن فعله كالسماع ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾[الشعراء:٢١٢]، وتارة عن الفهم، وتارة عن الطاعة، يقال:أنت ما تسمع الكلام.

﴿وَالأَبْصَارَ﴾جمع بصر، وهي قوة جارحة ناظرة، ويقال لقوة القلب المدركة: بصيرة وبصر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق:٢٢].

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾والأمر هو الشأن قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[الرحمن:٢٩]، والمعنى: ومن يدبر أمر السماء والأرض وما فيهن وأمركم وأمر الخلق جميعًاقال الله تعالى:﴿قُلْ إِنَّ

الأَمْرَ كُلَّهُ لله﴾[آل عمران:١٥٤]﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾[هود:١٢٣]﴿ بَلْ لله الأَمْرُ جَمِيعًا﴾[الرعد:٣١]﴿لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾[الروم:٤].

﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ أي: فسوف يجيبونك بأن الذي يفعل ذلك كله هو الله.

﴿فَقُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أي:أفلا تخافون عقاب الله إن عبدتم غيره.

قال في المفردات(١): والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف. هذا تحقيقه. ثم يسمى الخوف تارة تقوى. والتقوى خوفا.اهـ

(١).انظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني رحمه الله ص (٨٨١).

قال المصنف رحمه الله تعالى:

القاعدة الثانية:أنهم يقولون ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة

هذه القاعدة قاعدة قطعيةيقينية.

ومعناها:أن الشرك وقع من المشركين العرب لسببين اثنين، وهما: طلب القربة، والشفاعة فأثبتوا أن الله تعالى هو المعبود، ولكن أثبتوا آلهة تُعبد مع الله تعالى.

ولذا لما جاء نبينا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعوهم إلى عبادة الله تعالى قالوا كما قال الله عنهم: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥]، وقال الله تعالى:﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[الصافات:٣٥].

وقد جاء النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعوهم الى كلمة التوحيد،وكان يخرج إلى الأسواق ويقول لهم:«**قولوا: لا إله الا الله تفلحوا**»(١).

---

(١)صحيح. أخرجه ابن حبان برقم (٦٥٦٢) عن طارق المحاربيت، وهو حديث صحيح.

ففهموا معناها بخلاف كثير من الطوائف المنتسبة للإسلام، لم يفهموا هذه الكلمة، فترى من يفسر هذه الكلمة، فيقول: لا إله إلا الله معناها: لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله،وهذا أمرٌ قد أقر به المشركون بأن الله خالق ورازق ومدبر، ولهذا علموا أن معنى هذه الكلمة أن العبادة لله تعالى وحده لا شريك، وأنه لا معبود بحق إلا الله، ولهذا امتنعوا أن يقولوا هذه الكلمة وأن يعبدوا الله تعالى بمقتضاها، فالمشركون في زمان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهموا معنى هذه الكلمة، وأنهم لو قالوا هذه الكلمة، ودخلوا في الإسلام فإنه يلزمهم أن يتركوا الآلهة الباطلة التي يعبدونها من دون الله تعالى، أو مع الله تعالى، ولذا هم يقولون: نحن نعبدها من أجل القربة، ومن أجل الشفاعة قال الله تعالى:﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[الزمر:٣]، والزلفى: القربة أي: ما نعبدهم إلا ليقربونا إليه، ومن أجل أن تشفع لنا عند الله تعالى فكفروا بذلك؛ لأن العبادة والشفاعة لله وحده.

قال ابن كثير رحمه الله(١):أي:إنما يحملهم على عبادتهم لهم، وأنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلًا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.اهـ

---

(١)في تفسيره (٧/ ٧٤).

وقال ابن القيم رحمه الله(١): وأما الشرك، فهو نوعان:أكبر، وأصغر، فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندًّايحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا عن آلتهم في النار:﴿ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨].اهـ

وقال الله تعالى: ثم الذين كفروا بربهم يعدلون،أي يسوون به غيره، فكيف يساوون بين صنم وبين الرب الخالق الرازق المدبر.

قال شيخ الاسلام رحمه الله(٢): فهذا العدل والتسوية والتمثيل والإشراك هو الظلم العظيم.اهـ

قال الله تعالى عن لقمان عليه السلام، وهو ينصح ولده:﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان:١٣].

والقربى بمعنى أن الإنسان يريد المنزلة ويتخذ عملا يتقرب به، القرب والبعد يتقابلان، يقال: هذا قريب، وهذا بعيد، وقال في المصباح المنير(٣): القرب في المكان، والقربة في المنزلة، والقربى، والقرابة في الرحم.اهـ

---

(١)في مدارج السالكين (١/ ٣٤٨).

(٢)كما في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٨٢).

(٣)المصباح المنير للفيومي (٢/ ٤٩٥).

والقربة في الشرع: بمعنى الشفاعة، وبعضهم يقول: القربة هي أخص من الطاعة فالطاعة هي موافقة أمر الشرع الطاعة في فعل المأمور وترك المحظور، وهي أعم من القربة، فكل قربة طاعة، ولا عكس، بمعنى أن القربة يُشترط فيها التقرب الى الله تعالى،فمثلًا: النفقة على الزوجة هذه طاعة؛ لأن الله تعالى أمر بذلك فمن فعل هذا الشيء فقد أطاع الله تعالى في هذا الأمر،ولو أن الإنسان إذا أنفق على زوجته احتسب الأجر فإن هذا العمل فإنه يصير طاعة وقربة.

وقوله:(والشفاعة) هي مصدر شفع يشفع شفاعة، ومادة الشين والفاء والعين تدل على مقارنة بين شيئين، والشفع خلاف الوتر، فهذا شفعٌ، وهذا وتر قال الله تعالى: ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾[الفجر:٣].

وقال في المفردات(١): الشفع ضم الشيء إلى مثله، والشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصرًا له، وسائلًا عنه.اهـ

فالشفاعة: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقع في الجناية في حقه،وقال بعضهم: هي توسط للغير بجلب منفعة،أو دفع مضرة.

قال شيخ الاسلام رحمه الله(٢):ولهذا سُمي الشفيع شفيعًا؛ لأنه يشفع للطالب، كما قال الله تعالى: من يشفع شفاعة ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل

---

(١)في المفردات (١/ ٤٥٧).

(٢)في الصفدية (٢/ ٢٩١).

منها، فكل من أعان غيره على أمر فهو شافع له، والشافع عند غيره تؤثر فيه حركة تغير اختياره، ويكون شريكًا له في المطلوب، والله منزه عن ذلك كله.اهـ

قال المصنف رحمه الله تعالى:

فدليل القربة قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[الزمر:٣]

قال ابن كثير رحمه الله(١): أي: لا يُقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له.اهـ وقال في قوله: **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾**:أي:إنما يحملهم على عبادتهم لهم، وأنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلًا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.اهـ

فالذين أشركوا مع الله غيره، واتخذوا من دونه أولياء يقولون: ما نعبد تلك الآلهة مع الله تعالى إلا من أجل أن تشفع لنا عند الله، ومن أجل أن تُقربنا عنده منزلة، فكفروا بذلك؛ لأن العبادة، والشفاعة لله وحده، قال تعالى:**﴿ قُلْ لِلَّهِ**

---

(١)في تفسيره (٧/ ٧٤).

﴿الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤]، ثم أخبر سبحانه أنه يفصل بين المؤمنين الموحدين، والمشركين مع الله غيره يوم القيامة فيما هم فيه من عبادتهم فقال:﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[الزمر:٣]، وقوله:﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[الزمر:٣]، أي:إن الله لا يوفق الى الصراط المستقيم، من هو كاذبٌ على الله، كافرٌ بآياته وحججه.

قال ابن كثير رحمه الله(١): وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه، ولا رضي به بل أبغضه ونهى عنه؟.اهـ

قال المصنف رحمه الله تعالى:

ودليل الشفاعة قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾[يونس:١٨]

أي: ويعبد المشركون من دون الله تبارك وتعالى ﴿مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾ شيئًا في الدنيا الآخرة،﴿وَيَقُولُونَ﴾أي: المشركون إنما عبدنا هؤلاء ليشفعوا لنا

(١)في تفسيره (٧/ ٧٤).

عند الله، فهم يعبدون غير الله، وهي لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، فمن باب أولى وأحرى أن تملك لغيرها.

قال القرطبي رحمه الله في (تفسيره)(١): وهذه غاية الجهالة منهم، حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال.اهـ

وقال ابن كثير رحمه الله(٢): ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تملك شيئًا، ولا يقع شيءٌ مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبدا فهي أصنام لا تنفع ولا تضر.اهـ

قال المصنف رحمه الله تعالى:

والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة. فالشفاعة المنفية: ما كانت تطلب من غير الله تعالى، فيما لا يقدر عليه إلا الله، والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤]، والشفاعة المثبتة: هي التي تُطلب من الله، والشافع مكرم بالشفاعة، والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن كما

---

(١) في تفسيره (٨/ ٣٢٢).

(٢) في تفسيره (٤/ ٢٢٤).

قال تعالى:﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥]، ودليل هذا التقسيم التتبع والاستقراء لنصوص الكتاب والسنة، فقد جاءت آيات بإثبات الشفاعة وآيات بنفيها.

القسم الأول: شفاعةٌمنفية، وهي التي نفاها الله تعالى، وأخبر أنها باطلة، وحكم عليها بالبطلان، قال الله تعالى:﴿ **وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[الأنعام:٥١]، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[السجدة:٤]﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[غافر:١٨].**

القسم الثاني: شفاعة مثبتة، وهي ما دلت نصوص الوحيين على إثباتها بشروطها.

والشفاعة المثبتة، لها شرطان: الإذن، والرضا.

الإذن للشافع ورضاه عن المشفوع، وبعضهم يقول:إذنه للشافع، ورضاه عن الشافع والمشفوع، ويجعلها ثلاثة.

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى(١): فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملكٌ أو قسطٌ من الملك، أو يكون عونا لله، ولم

---

(١) كما في مجموع (٧/ ٧٧).

يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال تعالى:﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥]، وقال سبحانه عن الملائكة:﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال:﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[النجم:٢٦]، فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن.اهـ

وقوله في الشفاعة المنفية:(ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه الا الله). هذا قيد واحترازٌ، فلو طُلبت من مخلوق حي حاضر، وهو يقدر على ذلك في أمر مباح فهذا جائز، ويؤجر صاحبها، قال النبي ﷺ :«**اشفعوا تؤجروا**»(١) متفق عليه عن أبي موسى الأشعري ت، ورواه أبو داوود والنسائي عن معاوية رضي الله عنه،وهو حديث صحيح(٢).

أما لو طَلب شيئًا من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله هذا شرك أكبر، وهي شفاعة شركية، وقد نفاها الله تعالى كما في آية البقرة.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾هذا نداء لأهل الإيمان الذين حققوا الإيمان قولًا وعملًا واعتقادًا **﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾** أي:أخرجوا الزكاة،وتصدقوا

---

(١)أخرجه البخاري بررقم (١٤٣٢) ومسلم برقم (٢٦٢٧).

(٢)صحيح. أخرجه أبو داود برقم (٥١٣٢) والنسائي برقم (٢٥٥٧)، وهو حديث صحيح.

مما أعطاكم الله ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾أي: من قبل مجيء يوم القيامة حين ذلك لا ينفع فيه عمل ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي: لا يمكن فيه بيع ولا شراء ﴿وَلا خُلَّةٌ﴾ الخلة بضم الخاء: المودة والصداقة، سُميت بذلك؛ لأنها تتخلل الأعضاء،أي: تدخل خلالها، والخلة: هي أعلى مراتب المحبة، والله ﷻ لم يتخذ من عباده خليلًا إلا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكذلك نبينا ﷺ .

ومعنى الخلة:أن يبقى القلب خاليًامن محبة سائر الناس، ولا يحب إلا شخصًا، وهذه لا تكون إلا لله تعالى.

الخلة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين، والخلة بفتح الخاء: الحاجة والفقر. والخلة بكسر الخاء: واحدة من خلل السيوف، وهي بطائن كانت توشى بها أجفان السيوف منقوشة بالذهب وغيره.

وقوله: ﴿وَلا شَفَاعَةٌ﴾ أي: ولا شفيع يملك تخفيف العذاب،أو رفعه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو:(لا بيعَ فيه ولا خلةَ ولا شفاعةَ)، والمعنى أن الله تعالى نفى هذه الأمور بشتى أنواعها في يوم القيامة، وقرأ الباقون بالرفع والتنوين.

وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: المتجاوزون حدود الله.

قال عطاء بن دينار رحمه الله: الحمد لله الذي قال:﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ولم يقل:(والظالمون هم الكافرون)، لماذا؟

لأنه لو كان كل من ظلم نفسه قد وقع الكفر فمن سيسلمُ منا؟ وكلنا يظلم نفسه.

وهذا يدل على أن من وقع في الكفر فقد ظلم نفسه، وليس من وقع في الظلم يكون قد خرج من دين الإسلام؛ لأن الظلم أنواع وأعظمه الشرك بالله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

والشفاعة المثبتة: هي الشفاعة النافعة، والتي تطلب من الله تعالى، ولا تطلب من مخلوق، فهي نوع من أنواع الدعاء، ومن صرفها لغير الله فقد أشرك شركًا أكبر.

قال رحمه الله:(والشافع مكرم) ؛ لأن الله تعالى لا يحتاج إلى وسطاء بينه وبين خلقه حتى يغير رأيه، بخلاف المخلوق فإنه يحتاج إلى وسطاء، وهذا لنقص قدرتهم، وضعف حكمهم،أما ربنا تبارك وتعالى فلا يحتاج الى ذلك.

وقوله:(والشافع مكرم)وإكرام الشافع يكون بإظهاره على غيره؛ لأنه إذا شفع لغيره، فقد ظهر إكرامه، ولهذا لما يشفع النبي ﷺ للناس في أرض المحشر فإنه يظهر فضل النبي ﷺ على سائر الخلق، وأنه افضل البشر.

ويظهر فضل الله تعالى وكرمه على نبينا ﷺ ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩].

والشفاعة ما تكون إلا بكرم الله تعالى لمن شاء، فالله يكرم من شاء من عباده بالشفاعة، ويجعله شفيعًا.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن، كما قال تعالى:﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥]

ذكر شرطين لا تكون الشفاعة شرعية إلا بهما: إذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع، وهذه الآية التي ذكرها المصنف رحمه الله فيها شرط واحد، وهو الإذن، ومعنى الآية: لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه، وهذه الآية تدل على أن الشفاعة بدون إذنه لا تقع.

قد يقول قائل: هذه الآية ذكرت شرطًا واحدًا فكيف الجواب؟

يُقال: الإذن تابعٌ والرضا يكون سابق، فلما ذكر الثاني استلزم الأول.

وأما قوله تعالى:﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾[النجم:٢٦]، فإن هذه الآية قد جمعت الشرطين.

وهذه الشفاعة في حق أهل التوحيد،ولهذا قال النبي ﷺ : «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه**»(١)، رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، وجاء عن أنس رضي الله عنه، أن النبي

(١) أخرجه البخاري برقم (٩٩).

ﷺ قال:«**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»(١)، رواه أبو داود، وسنده حسن.

قوله:(بعد الإذن) الإذن هنا الإذن الكوني؛ لأنه إذا رضي عن الشافع والمشفوع، وقد أذن الله تعالى له شرعًا بالشفاعة، فما بقي إلا الاذن الكوني.

والإذن ينقسم إلى قسمين:إذن شرعي، وإذن كوني.

فالإذن الكوني: ما أراده الله تعالى سيقع لا محالة،وأما الإذن الشرعي: فهو الذي يحبه الله ﷻ.

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥].

قال ابن كثير رحمه الله(٢): وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه تعالى ،أنه لا يتجاسر أحدٌ على أن يشفع عنده إلا باذنه له في الشفاعة.اهـ

وهناك من يشفع في يوم القيامة فيشفع ربنا تبارك وتعالى، والنبيون، والملائكة، والمؤمنون(٣)، والشهيد يشفع في سبعين من أقربائه(١)، والذي يموت وهو صغير(٢).

---

(١)صحيح. أخرجه أبو داود برقم (٤٧٣٩) والترمذي برقم (٢٤٣٥) وأحمد برقم (١٣٢٢٢) وهو حديث صحيح، وأخرجه الترمذي برقم (٢٤٣٦) عن جابر ت، وهو حديث حسن بشواهده.

(٢)في تفسيره (١/ ٥١٩).

(٣) لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال: «فيقول الله عزوجل: شفعت الملائة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين... » الحديث، رواه مسلم برقم (١٨٣).

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له شفاعات عامة، وبعضها خاصة، فالشفاعة العامة: في أرض المحشر للموحدين،وهي أعظم شفاعة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وهناك شفاعة أخرى: وهو أنه يأتي الى باب الجنة، ويشفع في فتح باب الجنة لدخول أهل الجنة(٣)، وهذه أيضًا خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهناك شفاعة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمه أبي طالب، وهي خاصة بأبي طالب لما قال العباس ت،للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «ماذا أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب

---

(١)لحديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول ﷺ: «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته»، رواه أبو داود برقم (٢٥٢٢) وهو حديث صحيح وجاء عن المقدام بن معدي كرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: قال رسول الله ﷺ: للشهيد ست خصال: «يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»، رواه أحمد برقم (١٧١٨٢) والترمذي برقم (١٦٦٣) وابن ماجه برقم (٢٧٩٩)، وهو حديث حسن.

(٢) جاء عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،قال: «ما من الناس من مسلم، يُتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحنث، إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم»، رواه البخاري برقم (١٢٤٨)، وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه، فيأخذ بثوبه كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا، فلا ينتهي حتى يدخله الله وأباه الجنة»، رواه مسلم برقم (٢٦٣٥).

(٣) لحديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: قال رسول الله ﷺ:«آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»، رواه مسلم برقم (١٩٧).

لك؟ قال:هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[(١)]، فشفع له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذهالشفاعة فما أخرجته من النار وإنما خففت عنه العذاب.

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٨٨٣) ومسلم برقم (٢٠٩) عن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

والقاعدة الثالثة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظهر على أناس متفرقين في عبادتهم منهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، وقاتلهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولم يفرق بينهم

هذه القاعدة قاعدة قطعية يقينية، وهي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه الله تعالى إلى أناس متفرقين في عبادتهم ومذاهبهم، ويجمعهم شيءٌ واحدٌ، وهو الإشراك بالله تعالى.

فمنهم من يعبد الملائكة، والملائكة خلقٌ لله تعالى خلقهم من نور، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، والأنبياء جمع نبي مأخوذ من النبأ بمعنى الخبر ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾[النبأ:٢]، أي: عن الخبر العظيم،أو مأخوذٌ من النبوة، بمعنى العلو والارتفاع، بل الصحيح أنه مأخوذٌ منهما فهو مخبر عن الله، وله منزلة ومكانة. وشرعًا: هو إنسان ذكر أُوحي إليه بشرع، وأُمر بتبليغه.

قوله:(والصالحين) جمع صالح، والصالح من صلح ظاهره وباطنه، والأنبياء هم ذروة الصالحين.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار

وهي جمادات والأشجار جمع شجرة، والشجر من النبات ما له ساق، يقال: شجرة وشجر، نحو: ثمرة وثمر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]، وقال سبحانه:﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[الرحمن:٦]، وقال ﴿ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ﴾[الواقعة:٥٢]، وقال سبحانه:﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾ [الدخان:٤٣]، وواد شجير أي: كثير الشجر، ومنه الشجار والمشاجرة والتشاجر بمعنى المنازعة. قال الله تعالى:﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[النساء:٦٥]، أي: المنازعة التي تحصل بينهم.

وقوله:(والأحجار) جمع حجر، وهو معروف، ويجمع على أحجار وحجارة، ومنه قوله تعالى:﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[البقرة:٢٤]، وقال:﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[البقرة:٧٤]، ويسمى ما يحاط بالبيت بالحجارة حِجْرًا، ولهذا سُمي ما يُحاط بالبيت: حجر البيت، وبه سُمي حجر الكعبة، وكذلك ديار ثمود، قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[الحجر:٨٠]، وأيضًا فيه معنى المنع، فهو يمنع من دخول الحيوانات على البيت، ومن دخول

غيرها، ولذا يقال للعقل: حجر؛ لكونه يمنع صاحبه مما تدعوه إليه نفسه، ومنه قوله تعالى:﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾[الفجر:٥]، أي: لذي عقل، ويقال للأنثى من الفرس: حجر؛ لكونها مشتملة على ما فيها في بطنها من الولد، والحجر الممنوع منه بتحريمه قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام:١٣٨]، أي:أنها ممنوعة ومحرمة، وفلان في حجر فلان،أي: في منع منه عن التصرف في ماله، وكثير من أحواله، يقال: هذا محجور، وفي حجره وهو جمع حجور، ومنه قوله تعالى:﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾[النساء:٢٣].

قال:(ومنهم من يعبد الشمس والقمر) الشمس يقال: للقرصة وللضوء المنتشر عنها، وتجمع على شموس، والقمر هو قمر السماء، يقال: عند الامتلاء.

قال ابن القيم رحمه الله(١): وأصل هذا المذهب من مشركي الصابئة، وهم قوم ابراهيم عليه الصلاة والسلام، الذين ناظرهم في بطلان الشرك، وكسر حجتهم بعلمه، وآلهتهم بيده، فطلبوا تحريقه، وهو مذهب قديم في العالم، وأهله طوائف شتى.اهـ

قال:(وقاتلهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جميعًا، ولم يفرق بينهم) ؛ لأنهم مشركون فاتفقوا في هذا الوصف، فأُمر بقتالهم قال الله تعالى:﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا

---

(١)في إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٣).

الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[التوبة:٥]الآية، وقال:﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:٣٦].

وحذر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون من المشركين، فقال:﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يونس:١٠٥]، وقال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[الحجر:٩٤]، وكذلك أوصى المؤمنين أن يبتعدوا عن الشرك فقال:﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم:٣١].

لماذا حذرنا الله تعالى من الشرك ومن أهله؟

لأن أهل الشرك هم شر الخليقة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾[البينة:٦]، أي: شر الخليقة.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

والدليل قوله تعالى:﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله﴾[البقرة:١٩٣]

أي: والدليل على تسوية الحكم، وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاتلهم، ولم يفرق بينهم واستدل بهذه الاية، ولو أنه استدل بقوله تعالى:﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:٣٦]، لكان أحسن، لماذا؟

لأن فيها التصريح بلفظ: المشركين، وفيها أمرٌ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وأما هذه الآية التي ذكرها فهي عامة، في زمان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وبعد زمانه.

وفي الصحيحين(١) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«**أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويُقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**».

قال المصنف رحمه الله تعالى:

ودليل الشمس والقمر قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[فصلت:٣٧]

والدليل على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعث إلى أُناس منهم من يعبد الشمس والقمر هذه الآية.

---

(١)أخرجه البخاري برقم (٢٥) ومسلم برقم (٢٢)، وجاء في البخاري برقم (١٣٩٩) ومسلم برقم (٢١) عن عمر ت،وجاء في البخاري برقم (٢٩٤٦) ومسلم برقم (٢١) عن أبي هريرة ت، وجاء في البخاري برقم (٣٩٢) عن أنس ت،وفي صحيح مسلم برقم (٢٣) عن جابر ت.

قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾،الآيات جمع آية، وهي في اللغة: العلامة والحجة والبرهان.

وآيات الله نوعان: آياتٌ كونية، وآياتٌ شرعية، أما الآيات الشرعية فالمراد بها الوحي الذي جاءت به الرسل، قال الله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾[الحديد:٩]، وقال تعالى:﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[العنكبوت:٤٩].

وأما الآيات الكونية:فهي المخلوقات كالشمس، والقمر، والسماء، والأرض، والجبال، والإنسان، والحيوان، والنبات، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾الليل والنهار هماآيتان عظيمتان، تدلان على وجود الرب جل وعلا، حيث يتعاقبان فهذا يذهب وهذا يأتي، وليس بينهما فاصل، قال الله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[الفرقان:٦٢]، ومعنى خلفة:أن يخلف أحدهما الآخر،ويختلفان في الطول والقصر، وقال سبحانه:﴿ يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾[النور:٤٤]، ولو كان الليل والنهار سرمدًا لتعطلت مصالح العباد قال الله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس:٦٧] الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾،وهما من آيات الله تعالى الدالة على وجود الرب جل وعلا على وجود الرب سبحانه وتعالى فهما يجريان باستمرار إلى أن

يأذن الله بخراب العالم،﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس:٣٨]، ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:٥]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم:٣٣]، ومعنى دائبين أي: لا يفتران، وهؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر لو كانوا يعقلون فإنه هذه المخلوقات، هي بنفسها تسجد لله ﷻ، قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾[الحج:١٨] الآية، وقال سبحانه:﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[الرحمن:٥]، أي: متعاقبين بحساب متقن، لا يختلف.

وقوله تعالى: ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ﴾نهى الله تعالى عن السجود لهما؛ لأنهما مخلوقان والله تعالى خالقهما، ولو شاء لطمس نورهما وأعدمهما، بل هي تسجد لخالقها كما في قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

[الحج:١٨]، وكذلك في حديث أبي ذر تفي الصحيحين[١]، وفي الحديث: أن الشمس تسجد تحت عرش الرحمن.

ولما رأى الهدهد قوم سبأ يعبدون الشمس من دون الله أنكر ذلك، وهو طائر، فجاء إلى سليمان، وقال له:﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[النمل:٢٣ـ٢٦].

واختلف أهل التفسير من الذي قال هذه المقولة ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾[النمل:٢٥]؟ هل هو سليمان؛،أو هو الهدهد؟

والظاهر من سياق الآيات أنه الهدهد، والله أعلم، لأنه استنكر ذلك ثم قال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾، ثم بعد ذلك لما تكلم سليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [النمل:٢٧]، ومن هنا بدأ سليمان ؛بالكلام.

---

(١)أخرجه البخاري برقم (٣١٩٩) ومسلم برقم (١٥٩).

وقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدُوا لله الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، أي:أفردوا ربكم وحده بالعبادة؛ لأنه سبحانهوتعالى هو الذي خلقهن، وخلق جميع المخلوقات، فهو وحده المستحق للعبادة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾، أي:إن كنتم تعبدون الله فإن من طاعته أن تخلصوا له في عبادتكم، ولا تشركوا به شيئًا.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

ودليل الملائكة قوله تعالى: ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران:٨٠]، الآية.

أي: والدليل على أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بعث في أناس كانوا يعبدون الملائكة هذه الآية التي ذكرها المصنف رحمه الله، وهذه الآية فيها قراءتان: قرأ عاصمٌ وابنُ عامر وحمزةُ بالنصب**﴿ وَلا يَأْمُرَكُمْ﴾**عطفًا على قوله تعالى:**﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ﴾**.

قال القرطبي رحمه الله(١): وفيه ضمير البشر،أي: ولا يأمركم البشر يعني: عيسى وعزيرًا، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف**﴿ وَلا يَأْمُرُكُمْ﴾**هذا على

---

(١) في تفسيره (٤/ ١٢٣).

الاستئناف والقطع من الكلام الأول، وفيه ضمير اسم الله تعالى، أي: ولا يأمركم الله أن تتخذوا.اهـ

قلتُ: ولا مانع من حمل الآية على الجميع، ما دام أنه قد صحت القراءتان،وكلاهما قراءةصحيحة سبعية،وبعضهم: يقول الأرجح النصب، وبعضهم يقول:الأرجح الضم، والأرجح حمل الآية على الجميع، والله أعلم.

فنقول على قراءة الضم: ولا يأمرنا الله تعالى بعبادة غيره، وعلى قراءة النصب: ولا يأمرنا الأنبياء ولا الملائكة ولا الصالحين بعبادة غير الله تعالى.

وقال القرطبي رحمه الله[1]:وهذا موجود في النصارى يعظمون الأنبياء والملائكة حتى يجعلوهم لهم اربابا.اهـ

فمن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا الى الشرك والكفر، ولهذا قال الله تعالى بعد ذلك:﴿**أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾[**آل عمران:٨٠**]، وهذا لا يحصل من الأنبياء، وإنما هم يأمرون أقوامهم بعبادة الله تعالى وحده ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾[**الأنبياء:٢٥**]، وقال:﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[**النحل:٣٦**]، وقال عن الملائكة: ﴿ **وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾[**الأنبياء:٢٩**].

---

(١) في تفسيره (٤/ ١٢٤).

قال المصنف رحمه الله تعالى:

ودليل الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[المائدة:١١٦]

أي: والدليل على أن النبي ﷺ بُعث إلى أُناس فيهم من يعبد الأنبياء والرسل هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ﴾ إذ في كلام العرب لما مضى، وإذا لما سيأتي فتكون إذ هنا بمعنى إذا كقوله تعالى:﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا ﴾[سبأ:٥١]، أي:إذا فزعوا، وهذا الخطاب سيكون يوم القيامة لقوله تعالى:﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾[المائدة:١٠٩]، فدل هذا على أنه لما سيأتي، ورجح هذا القول ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره عند هذه الآية.

وقوله: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾، وهو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، خلقه الله تعالى بلا أبٍ، وهو من أولي العزم من الرسل، وأمه مريم عليها السلام العذراء البتول.

وقوله تعالى: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، أي: ءأنت يا عيسى قلت للناس اجعلوني وأمي معبودين من دون الله.

قال ابن كثير رحمه الله[١]: وهذا تهديد للنصارى، وتوبيخ، وتقريع على رؤوس الأشهاد.اهـ

فأجاب عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ نزَّه الله تعالى عن ذلك، وقدم تنزيه الخالق على الدفاع عن نفسه.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى[٢]: هذا توفيقٌ للتأدب في الجواب الكامل.اهـ

قلتُ: وهذا يدل على أدب عظيم في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وفقه الله ﷻ للأدب في الجواب.

قال القرطبي رحمه الله تعالى[٣]: وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين:

أحدهما: تنزيهًا له عما أُضيف إليه.

الثاني: خضوعًا لعزته، وخوفًا من سطوته.اهـ

وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، أي: ما ينبغي لي أن أقول للناس غير الحق، فكيف أدعي لنفسي ما ليس من حقها، فأنا عبدٌ مربوب، ولست برب، وعابدٌ ولست بمعبود.

---

(١) في تفسيره (٣/ ٢٠٨).

(٢) في تفسيره (٣/ ٢٠٩).

(٣) في تفسيره (٦/ ٣٧٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾قال ابن كثير رحمه الله[١]: أي:إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيء مما قلتُه ولا أردتُه في نفسي، ولا أضمرته.اهـ

وقال القرطبي رحمه الله[٢]: فرد ذلك إلى علمه، وقد كان الله عالماً به أنه لم يقله، ولكنه سأله عنه تقريعًالمن اتخذ عيسى إلهًا.اهـ

وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾،أي: تعلم ما تضمره نفسي، ولا أعلم ما في نفسك.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾،أي: إنك عالم بكل شيء مما ظهر وخفي، وهذه الآية تدل على أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بعث في أناس كانوا يعبدون الأنبياء والرسل.

فالنصارى يعبدون عيسى، ويزعمون أنه إله من دون الله، قال الله تعالى: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾**[المائدة:٧٢].

والنصارى على أقسام: منهم من يقول: عيسى هو الإله، ومنهم من يقول: عيسى إله والله إله ومريم إله، ولهذا قال الله:**﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾**[المائدة:٧٣]، ومنهم من يقول: عيسى ابن الله،**﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ**

---

(١) في تفسيره (٣/ ٢٠٩).

(٢) في تفسيره (٦/ ٣٧٦).

﴿ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾[التوبة:٣٠]، وكلها أقوال باطلة، فهو عبد الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم:٣٠].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى(١): وكان أول كلمة نطق، وهو صغير في المهد أن قال: إني عبد الله، ولم يقل:أنا الله، ولا ابن الله، بل قال: إني عبد الله.اهـ

هذا يدل على أنه عبدٌ لله تعالى، وفي هذا ردٌ على النصارى، فأول كلمة قالها وهو في المهد أنه عبد لله تعالى.

وفي هذه الآية إثبات صفة النفس لله تعالى، وهي ثابتةٌ بالكتاب والسنة والإجماع. أما الكتاب: فلهذه الآية، ولقوله تعالى:﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾[طه:٤١]، وقوله تعالى:﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾[آل عمران:٢٨]،وقال:﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[الأنعام:١٢] وغيرها.

وأما السنة: ما جاء عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا»(٢)، رواه مسلم.

---

(١) في تفسيره (٣/ ١٤٢).

(٢)أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجويرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: «**سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته**»[(١)]، رواه مسلم.

وفي الحديث القدسي: «**فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي**»[(٢)].

وأما الإجماع: فقد أجمع السلف على إثبات هذه الصفة.

فنثبت هذه الصفة بلا تكييف ولا تمثيل، ولا تشبيه ولا تعطيل، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

واختلف أهل السنة في هذه الصفة هل هي عين الذات؟ أو هي صفة من الذات كالسمع والبصر وغيرها من الصفات؟

والذي عليه الجماهير أنها هي الذات، واختار هذا القول شيخ الاسلام رحمه الله تعالى.

قال شيخ الاسلام رحمه الله[(٣)]: فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء: اللهُ نفسُهُ التي هي ذاته المتصفة بصفاته، ليس المراد بها ذاتًا منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة للذات.اهـ

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٢٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٤٠٥) ومسلم برقم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة ت.

(٣) كما في مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٢ـ٢٩٣).

وذهب بعض أهل العلم إلى أن النفس صفة للذات، واختار هذا القول ابن خزيمة رحمه الله.

والصحيح قول الجمهور، وهو اختيار شيخ الإسلام، والعلامة الألباني رحمة الله عليهما.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

ودليل الصالحين قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِم الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء:٥٧]

أي: والدليل على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعث إلى أناس كان فيهم من يعبد الصالحين هذه الآية،وقد جاء عن ابن مسعود ت أنه قال في هذه الآية: «كان ناس من الجن يعبدون فاسلموا، واستمسك الإنس بعبادتهم، فنزلت هذه الآية» [(١)]، متفق عليه، والتصريح بنزول هذه الآية في رواية مسلم.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، أي: الذين يدعوهم المشركون مع الله تعالى من الأنبياء والصالحين والملائكة، هم يطلبون ويتنافسون في القرب من ربهم **﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾،** فالصالحون

---

(١)أخرجه البخاري برقم (٤٧١٤) ومسلم برقم (٣٠٣٠).

جمعوا بين الخوف والرجاء قال ابن كثير رحمه الله[١]: لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات.اهـ

قال المصنف رحمه الله تعالى:

ودليل الأشجار والأحجار قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم:١٩ـ ٢٠]

أي: والدليل على أن النبي ﷺ بُعث في أُناس منهم من يعبد الأشجار والأحجار هذه الآية ﴿أَفَرَأَيْتُمُ﴾، أي:أيها المشركون، هذه الآلهة التي تعبدونها هل يوحى إليها؟ وهل تنفعكم وتضركم؟وهذا استفهام إنكارٍ وتوبيخٍ.

﴿اللَّاتَ﴾ كانت صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف لها أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها.

فلما اسلمت ثقيف بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة رضي الله عنه فهدمها وحرقها بالنار، وذكر ابن جرير رحمه الله[٢]أنها مشتقة من اسم الله يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، فيقولون الله مذكر واللات مؤنث، وهذا قول باطل.

---

(١)في تفسيره (٥/ ٨٢).

(٢)في تفسيره (٢٢/ ٥٢٣).

وقرئ اللات بتشديد التاء، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**كان اللَّاتُ رجلًا يلت سويق الحاج**»(١)، رواه البخاري.

﴿وَالْعُزَّى﴾ مأخوذة من العزيز، وهي شجرة كان عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف وكانت قريش يعظمونها، وهي لقريش وبني كنانة كما قال أبو سفيان تيوم أحد:(لنا العزى ولا عزى لكم)(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾، ومَنَاة من منى الله الشيء إذا قدره، وقيل سميت بذلك: لأنهم كانوا يُريقون الدماء عنده يتقربون إليه، ومنه سميت منى لكثرة ما يراق فيها من الدماء، وكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها.

وقد جاء عن أبي الطفيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما فتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة بعث خالد بن الوليد تإلى نخلة، وكانت بها العزى، فأتاها خالد بن الوليد ت، وكانت على ثلاث سمرات، فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره، فقال:«ارجع فإنك لم تصنع شيئًا»، فرجع خالد فلما نظرت إليه السدنة، وهم حجابها أمعنوا في الجبل وهم يقولون: يا عزي عوريه، وإلا فموتي بزعم، قال: فأتاها خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإذا امرأة عريانة ناشرة

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٨٥٩).

(٢)أخرجه البخاري برقم (٤٠٤٣).

شعرها تحثوا التراب على رأسها، فعممها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره قال:«**تلك العزى**»[(١)]، رواه أبو يعلى، وهو حديث صحيح.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى[(٢)]: وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها، طواغيت أُخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر؛ لأنها أشهر من غيرها.اهـ

قال المصنف رحمه الله تعالى:

وحديث أبي واقد الليثي ت قال: «خرجنا مع النبي ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سِدْرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يُقال لها: ذاتُ أنْواط فمررنا بِسِدْرة، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذاتَ أنواطٍ، كما لهم ذاتُ أنواط» (٣)، الحديث

قلتُ: رواه الترمذي وهو حديث صحيح.

---

(١)**صحيح**. أخرجه النسائي في الكبرى برقم (١١٤٨٣) وأبو يعلى برقم (٩٠٢)، وهو حديث صحيح وقد ذكره العلامة الوادعي رحمه الله في الصحيح المسند برقم (٥٣٥).

(٢)في تفسيره (٧/ ٤٢٣).

(٣)**صحيح**.أخرجه أحمد برقم (٢١٨٩٧) والترمذي برقم (٢١٨٠)، وسنده صحيح.

أبو واقد الليثي ت هو الحارث بن مالك، وقيل: مالك بن عوف، حصل خلاف في اسمه، وهو مشهور بكنيته ت.

أسلم يوم الفتح، وشهد غزوة حنين، ومات سنة ثمان وستين من الهجرة النبوية، وهذا هو المشهور، وقيل: سنة خمس وستين من الهجرة.

خرجوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة إلى حنين، وهو واد قريب من الطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلًا من جهة عرفات، وكانت هذه الغزوة ـ غزوة حنين ـ في السنة الثامنة من الهجرة.

خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه اثنا عشر ألفًا من الصحابة عشرةُ آلاف من المدينة من المهاجرين والأنصار، وألفان من مسلمة الفتح.

وقوله:(ونحن حدثاء عهد بكفر)أي:أنه كان هو ومن كان معه من مسلمة الفتح،(حدثاء) جمع حديث بمعنى قريب عهد بكفر، أي: دخلوا في الإسلام في وقت قريب فهم من مسلمة الفتح، وقدم هنا العلة ليتبين ما هو السبب، وإذا عرف السبب بطل العجب.

(وللمشركين سدرة)، شجرة سدرة يعكفون عندها والاعتكاف في اللغة: بمعنى اللزوم والإقامة.

(وينوطون بها أسلحتهم) من ناط ينوط نوطًا، بمعنى: التعليق، وناط بالشيء أي: علقه، وقد جاء عند أحمد:(يعلقون بها اسلحتهم)[١]، وكانوا يتبركون بها.

(يُقال: لها ذاتُأنواط) هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين، ينوطون بها أسلحتهم، ويعكفون حولها، فسألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك.

وهم بدءوا واستأذنوا رسول الله ﷺ قبل أن يفعلوا ذلك، فبين لهم أن ذلك شرك، وأنه طريقٌ يُؤدي إلى مشابهة المشركين، وهذا الذي ينبغي على الإنسان أنه إذا أشكل عليه أمرٌأن يبدأ بالسؤال قبل أن يفعل.

فلما استأذنوا النبي ﷺ بين لهم أن هذا شرك، وأنه طريق يؤدي الى مشابهة المشركين، وقال لهم قلتم والله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿**اجْعَل لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾[الأعراف:١٣٨].

وهناك فرقٌ بين المقولتين، فقوم موسى ؛ طلبوا إلهًا من دون الله، وأما هؤلاء إنما طلبوا شجرة يتبركون بها.

وإنما شابه النبي ﷺ بين المقولتين من حيثُ أن قوم موسى نجاهم الله تعالى فمروا على قوم قد اتخذوا لهم إلهًا، فقالوا: ﴿**اجْعَل لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾، وهؤلاء الذين أسلموا في عام الفتح مروا على قوم يعكفون عند شجرة، ويعلقون بها أسلحتهم فقالوا: ﴿**اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط**﴾، هذا هو وجه الشبه.

---

(١)صحيح.أخرجه أحمد برقم (٢١٨٩٧)، وسنده صحيح.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

القاعدة الرابعة:أن مشركي زماننا أغلظ شركًا من الأولين؛ لأن الأولين يُشركون في الرخاء، ويُخلصون في الشدة، ومشركو زماننا شركهم دائمًا في الرخاء والشدة

هذه في الأصل ليست قاعدة؛ لأن القواعد التي أراد المصنف رحمه الله ذكرها هي: التي يحصل بها التمييز بين المشرك والموحد.

وهذه القاعدة لم يحصل بها تمييز، وإنما هي للتفريق بين شرك الأولين والمتأخرين، والوصف فيهم موجود وهو الشرك، فليس فيها تفريق وإنما هي للتمييز بين شرك الأولين، وشرك الآخرين.

قوله:(أن مشركي زماننا)، وهو القرن الثاني عشر من الهجرة، وما بعده.

وقوله: (أغلظ)أي:أشد، ومنه قوله تعالى:﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التحريم:٩]، ثم علل ذلك بقوله:(لأن الأولين يُشركون في الرخاء، ويُخلصون في الشدة).

فالمتأخرون أعظم من هذه الحيثية، وليس من كل وجه؛ لأن المشركين الأولين كانوا ينكرون البعث، وكذبوا بالنبي ﷺ ، وأرادوا قتله، وقاتلوه، وردوا ما جاء به، وأما المتأخرون فإنهم قد أقروا بالبعث وآمنوا بالنبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ونطقوا بالشهادة، ومنهم من يصلي، ويصوم، ويحج، فالمشابهة من هذه الحيثية، وهي: أن الأولين كانوا يُشركون في الرخاء،ويُخلصون في الشدة.

وأما المتأخرون فيُشركون في الرخاء وفي الشدة أي: أنهم يتضرعون، ويتقربون إلى آلهتهم،أو إلى أوليائهم في الرخاء وفي الشدة، وليس هذا دفاعًا عنهم فكلهم مشركون، وإنما من باب المقارنة.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥]

أي: فإذا ركب المشركون السفن في البحر، وخافوا الغرق والهلاك، لجئوا إلى الله، وأخلصوا له في الدعاء حال شدتهم، وتركوا دعاء الأصنام ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾، وذهبت عنهم الشدة عادوا إلى شركهم، يدعون غيره أو يدعون معه غيره.

فهلا كان الإخلاص له دائمًا في الشدة والرخاء، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾[الإسراء:٦٧].

وقال حافظ حكمي رحمه الله[١]: وهذا بخلاف مشركي زماننا اليوم من عبادة القبور وغيرها، فإنهم يشركون في الشدة أضعاف شركهم في الرخاء.اهـ

قال المصنف رحمه الله تعالى:

تمت وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

لما انتهت هذه الرسالة ختمها بالصلاة على محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه وسلم.

والصلاة في اللغة: الدعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾[التَّوْبَةِ:١٠٣]، ولحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا، فَلْيُصَلِّ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا، فَلْيَطْعَمْ**»[٢]، رواه مسلم.

وأصح ما قيل في صلاة الله على رسوله: ثناءه عليه عند الملائكة في الملأ الأعلى.

والصلاة من الملائكة بمعنى الاستغفار، لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي**

---

(١)في معارج القبول (٢/ ٤٨٥).

(٢)أخرجه مسلم برقم (١٤٣١).

صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ:اللهُمَّ ارْحَمْهُ، اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ»[(١)]، متفقٌ عليه، ومن الآدميين:التضرع والدعاء.

وجمع بين الصلاة والسلام على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هذا هو الأفضل؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

قال ابن الجزري في مفتاح الحصن[(٢)]: وأما الجمع بين الصلاة والسلام على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو الأفضل، والأولى، والأكمل، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب: ٥٦]، ولو اقتصر على أحدهما جاز من غير كراهة.اهـ

والحكمةمن تأكيد الأمر بالسلام في الآية القرآنية: ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾، ذلك؛ لأن الصلاة قد أخبر الله أنه هو وملائكته يصلون على النبي، فإذا استشعرت النفوس هذا بادرت إلى الصلاة عليه، وإن لم تؤمر، فكيف وقد أمرت به، إذًا: لا يحتاج إلى هذا التأكيد، بخلاف السلام فإنه خلا من هذا المعنى، وجاء في حيز الأمر دون الخبر، فلما خلا حسن تأكيده [(٣)] .

---

(١)أخرجه البخاري برقم (٢١١٩)ومسلم برقم (٦٤٩).

(٢)كما في شرح النونية لأحمد بن عيسى (١/ ٢٢-٢٣).

(٣) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ١٦٢).

والآل: هم من تحرم عليهم الصدقة، بنو هاشم وبنو عبد المطلب، كما قال النبي ﷺ : «**إنما بنو هاشم، وبنو عبد المطلب شيءٌ واحد**»[(١)]، وكذلك تحرم الصدقة على أزواجه رضي الله عنهنَّ، فهنَّ من أهل بيته، ويطلق على الأتباع.

وقوله:(وصحبه) جمع صاحب، وفيه الثناء على أصحاب النبي ﷺ ، والصحابي هو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به، ومات على ذلك، ولو تخللته ردة على الصحيح[(٢)].

وبهذا نكون قد انتهينا من هذه شرح الرسالة في ليلة الإثنين، التاسع عشر من جمادى الآخرة لعام ألف وأربعمائة وخمس وأربعين من الهجرة النبوية.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

---

(١)أخرجه البخاري برقم (٣١٤٠) عن جبير بن مطعم ت.

(٢)وهذا تعريف الحافظ رحمه الله في الإصابة (١/ ٨).

الفهرس

مقدمة الشارح ٣
ترجمة المؤلف ٤
اسمه ونسبه: ٤
مولده ونشأته: ٤
شيوخه: ٤
تلاميذه: ٥
مؤلفاته: ٦
وفاته: ٦
ومعنى البسملة: ٨
القاعدة الأولى ٤٢
القاعدة الثانية ٥٠
القاعدة الثالثة ٦٥
القاعدة الرابعة ٨٦
الفهرس ٩١

لله الحمد